ادوارد سعيد
1935

ادوارد سعيد، المفكر والناقد والمنظر الفلسطيني المعروف، ولد في القدس واتم تعليمه الابتدائي والثانوي في فلسطين ومصر. غادر عام 1957 الى الولايات المتحدة حيث نال شهادة البكالوريوس من جامعة برنستن، كما نال شهادة الماجستير ودرجة الدكتوراه من جامعة هارفرد.

عمل استاذاً زائراً في جامعة هارفرد 1974، وزميلاً في "مركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية " في جامعة ستانفورد، 1975-1976 ثم محاضراً في برنستن 1977، واستاذا زائراً في جامعة جونز هوبكنز. وهو يعمل حالياً استاذاً للأدب الانكليزي والادب المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك.

هو عضو في هيئات تحرير مجموعة كبيرة من المجلات العالمية ان كانت ادبية او فلسفية ويكتب في النقد والموسيقى في اهم الجرائد الصادرة في الولايات المتحدة . له كم هائل من المقالات منشورة في اهم المجلات العالمية كما ساهم في الدفاع عن القضايا التي تهم العرب والفلسطينيين في كافة المحافل الاكاديمية والإعلامية .

رغم معاناته، منذ عام 1991، من مرض اللوكيميا إلا ان ذلك لم يحد من غزارة انتاجه ونشاطه الدؤوب على المستوى الاكاديمي والسياسي. في العام الماضي كتب مذكراته والتي يتحدث فيها عن تجربته الشخصية بين فلسطين والمنفى، صدر الكتاب باللغة الانجليزية بعنوان "Out of Place" 1999. بعد صدور الكتاب تعرض لحملة تشهير وتشكيك بفلسطينيته من بعض الكُتاب اليهود كاستمرار للحملات التي شنتها الحركة الصهيونية ضد هذا المفكر في السنوات الثلاثين الماضية.

من أعماله:
جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية (1966)؛ بدايات: القصد والمنهج (1975)؛ الاستشراق (1978)؛ مسألة فلسطين (1979)؛ الأدب والمجتمع (تحرير، 1980)؛ تغطية الاسلام (1981)؛ العالم، النص، الناقد (1983)؛ بعد السماء الأخيرة: حيوات فلسطينية (مع صور فوتوغرافية من جان موهر، 1986)؛ لوم الضحية (تحرير مع كريستوفر هتشنز، 1988)؛ متتاليات موسيقية (1991)؛ الثقافة والامبريالية (1993)؛ سياسة التجريد 1994)؛ تمثيلات المثقف (1994)؛ غزة-أريحا سلام أمريكي (بالعربية، 1995)، السلام والسخط، (1995)، الدراسة التاريخية للأدب ورسالة المثقف.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الاستشراق*

بدأت بالافتراض التالي: إن الشرق ليس حقيقة خاملة من حقائق الطبيعة. فهو ليس مجرد وجود ثَمَّةَ، بالضبط كما أن الغرب نفسه ليس مجرد وجود ثمة. وينبغي أن نأخذ بجدية ملاحظة فيكو العظيمة أن البشر يصنعون تاريخهم، وأن ما بمقدورهم أن يعرفوه هو ما صنعوه، وأن نسحب هذه (الملاحظة) لتنطبق على الجغرافية: ذلك أن مواضع وأقاليم وأقساماً جغرافية كالشرق والغرب، من حيث هي كيانات جغرافية وثقافية-دون أن نقول شيئاً عن كونها كيانات تاريخية- هي من صنع الإنسان. ومن ثَمَّ، فان الشرق، بقدر الغرب نفسه تماماً، هو فكرة ذات تاريخ وتراث من الفكر، والصور، والمفردات التي أسبغت عليه حقيقية وحضوراً في الغرب ومن أجل الغرب. وهكذا فان كلاًّ من (هذين) الكيانين الجغرافيين يدعم الآخر، إلى حد ما، يعكسه.

ينبغي على المرء، وقد قال هذا، أن يستمر ليقرر عدداً من التقييدات المعقولة. قبل كل شيء، سيكون خطأ أن نستخلص أن الشرق كان **جوهرياً** (مجرد) فكرة، أو خلقاً دون واقع مطابق له. فعندما قال دزرائيلي في روايته **تانْكْرِدْ** إن الشرق صنعة، قصد إلى أن الاهتمام بالشرق شيء سيجده اللامعون من الشباب في الغرب شبوباً عاطفياً يستغرق المرء بصورة كلية، ولا ينبغي أن يفسَّر ما قاله بأنه يعني أن الشرق صنعة وحسب للغربيين. لقد كان ثمة، و ما يزال، ثقافات، وأمم مقامها الشرق، ولحياتها، وتواريخها، وعاداتها، حقيقة قاسية عارية هي، بوضوح، أعظم بكثير من كل ما يمكن أن يقال عنها في الغرب.

وليس بوسع هذه الدراسة أن تسهم إلا بالقليل القليل في (اكتناه) هذه الحقيقة، عدا عن إقرارها بصمت. غير أن ظاهرة الاستشراق، كما أدرسها هنا، تعالج، بشكل رئيسي، لا التطابق بين الاستشراق والشرق، بل الاطِّراد والاتَّساق الداخليين للاستشراق وأفكاره عن الشرق (الشرق كصنعة)، على الرغم من، وبما يتجاوز، أي تطابق أو غياب للتطابق مع شرق "حقيقي". والنقطة (التي أثيرها) هي أن تقرير دزرائيلي عن الشرق يشير بشكل رئيسي إلى ذلك الاطِّراد المخلوق، وتلك الكوكبة المنتظمة من الأفكار بوصفها الشيء الأكثر بروزاً وجلاء حول الشرق، لا إلى مجرد كينونتها، كما يعِّبر والَسْ سيتفنز.

ثمة تقييد ثان: هو أن الأفكار، والثقافات، والتواريخ لا يمكن أن تفهم بجدية دون أن تدرس أيضاً قوتها، أو ، بشكل أدق، تشخّصات قوتها، فأن يؤمن المرء بأن الشرق قد خلق - أو، كما أسمي ذلك، قد شُرْقِنَ- وأن يؤمن بأن أشياء كهذه تحدث كضرورة من ضرورات الخيال، هو أن يكون المرء ساذجاً. ذلك أن العلاقة بين الغرب والشرق هي علاقة من القوة، ومن السيطرة، ومن درجات متفاوتة من الهيمنة المعقدة المتشابكة. و هي علاقة يُدلَّلُ عليها

---

*المصدر: ادورد سعيد. الاستشراق. مؤسسة الابحاث العربية. ترجمة كمال أبو ديب. بيروت، لبنان. ط1 1981، طبعة ثانية.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

بشكل سليم في عنوان كتاب كِ .إم. بانيكار الكلاسي **آسيا والسيطرة الغربية**[1]. لقد شُرْقِنَ الشرق لا لمجرد أن (أوروبا) اكتشفت أنه شرقي بجميع تلك الطرق التي اعتبر ها الإنسان الأوروبي المتوسط في القرن التاسع عشر عادية معروفة، بل لأن الشرق كان **قابلاً لأن يُجعل**-أي أن يُخْضَعَ لكونه- شرقياً. وليس هناك مثلاً إلا أدنى درجات الإقرار في كون مواجهة فلوبير مع محظية مصرية أنتجت نموذجاً للمرأة الشرقية واسع التأثير؛ فهي لم تتحدث عن نفسها أبداً، ولم تمثل مشاعرها، وحضورها، وتاريخها أبداً. بل قام هو بالحديث عنها وبتمثيلها. وكان هو أجنبياً، غنياً نسبياً، وذكراً، وكانت هذه (الخصائص) حقائق تاريخية من حقائق السيطرة سمحت له لا بامتلاك كشك هانم جسدياً وحسب، بل بالتحدث باسمها وبإخبار قرائه بأي الطرق كانت "شرقية نمطية". والمنظومة التي أطرحها هي أن موقع القوة الذي احتله فلوبير بالنسبة إلى كشك هانم ليس حالة معزولة. بل إنه ليمثل نسق القوة النسبية (القائمة) بين الشرق والغرب، والإنشاء الذي جعله هذا النسق ممكناً.

ويقودنا ذلك إلى تقييد ثالث. ينبغي على المرء ألا يفترض أبداً أن بنية الاستشراق ليست سوى بنية من الأكاذيب أو الأساطير التي ستذهب أدراج الرياح إذا كان للحقيقة المتعقلة بها أن تُجلى. وأنا نفسي أؤمن بأن الاستشراق أكثر قيمة بشكل خاص كعلامة على القوة الأوروبية- الأطلسية - بازاء الشرق منه كإنشاء حقيقي عن الشرق (وهو ما يدّعي الاستشراق، في شكله الجامعي أو البحثي، كونه). على أي حال، إن ما علينا أن نحترمه ونحاول أن ندركه هو القوة المتلاحمة للإنشاء الاستشراقي، وعلاقاته الوثيقة بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية المعززِّة، وقدرته المهيبة على البقاء. فأي نظام من الأفكار قادر، بعد كل حساب، على أن يبقى دون تغَيّر كحكمة قابلة للتدريس (في المجامع، والكتب، والمؤتمرات، والجامعات، ومعاهد السلك الخارجي) من زمن ارنست رينان في أواخر 1840 إلى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة لا بد أن يكون شيئاً أكثر صلابة ومتانة من مجرد مجموعة من الأكاذيب. ومن ثَمَّ، فان الاستشراق ليس استيهاماً أوروبياً فار غاً حول الشرق، بل إنه لجسد مخلوق من النظرية والتطبيق ما برح، لأجيال عديدة، موضعاً لاستثمارات مادية كبيرة. وقد جعل الاستثمارُ المستمرُّ الاستشراقَ، من حيث هو نظام من المعرفة بالشرق، مَشْبَكاً يُمَّرر خلاله الشرق إلى الوعي الغربي، تماماً كما أن ذلك الاستثمار نفسه ضاعف التقريرات التي تكاثرت منسربةً من الاستشراق إلى الثقافة عامة - بل إنه قد جعل هذه التقريرات مُنِتجَةً بحق.

---

[1] K. M. Panikkar, *Asia and Western Dominance* (London: George Allen & Unwin, 1959).

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

لقد طرح غرامشي تمييزاً ناجعاً بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي يتشكل الأول، تبعاً له، من وشائج وروابط اختيارية (أو، على الأقل، عقلانية وغير قسرية) كالمدارس، والعائلات، والنقابات، ويتشكل الثاني من مؤسسات الدولة (الجيش، الشرطة، الجهاز المكاتبي المركزي) التي تلعب في نظام الحكم دوراً من السيطرة المباشرة. والثقافة، طبعاً، ذات فاعلية في المجتمع المدني حيث يتم تأثير الأفكار، والمؤسسات، والأفراد الآخرين لا عبر السيطرة بل عبر ما سّماه غرامشي الإقرار. ففي أي مجتمع لا كلياّتي، إذن، تطغى أشكال ثقافية معينة على أشكال أخرى، تماما كما أن أفكاراً معينة تكون أكثر نفوذاً من غيرها. وشكل هذه القيادة الثقافية هو ما مّيزه غرامشي **بالتسلّط الهيمنة hegemony** و هو مفهوم لا غنى عنه لفهم الحياة الثقافية في الغرب الصناعي. والتسلط أو، بالأحرى، النتائج الفاعلة للتسلط الثقافي هي ما يمنح الاستشراق متانته وقوته اللتين ما فتئت أتحدث عنهما. فالاستشراق ليس أبداً بمنأى عمّا يسميه دَنِسْ هَيْ فكرة أوروبا[2]، و هو مفهوم جمعي يحدّد هويتنا "نحن" الأوروبيين كنقيض لِـ "أولئك" الذين ليسوا أوروبيين. بل إنه لمن الممكن أن يطرح المرء منظومة تقول إن المكّون الرئيسي للثقافة الأوروبية هو بالضبط ما جعل تلك الثقافة متسلطة داخل أوروبا وخارجها على حد سواء: فكرة كون الهوية الأوروبية متفوقة بالمقارنة مع جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية. وثمة، بالإضافة إلى ذلك، تسلط الأفكار الأوروبية عن الشرق، التي تعيد بدورها تأكيد التفوق الأوروبي على التخلف الشرقي، ملغيةً عادةً احتمال أنّ مفكراً أكثر استقلالية وأكثر شكّاً قد يشكّل وجهة نظر مغايرة حول (هذه) المسألة.

يعتمد الاستشراق، بطريقة ثابتة، من أجل استراتيجيتهِ على هذا التفوق **الموقعي** المرن الذي يضع الغرب في سلسلة كاملة من العلاقات المحتملة مع الشرق دون أن يفقده للحظة واحدة كونه نسبيّاً صاحب اليد العليا. ولماذا كان ينبغي أن يكون الأمر على غير هذه الشاكلة، خصوصاً خلال مرحلة الهيمنة الأوروبية الخارقة منذ أواخر عصر النهضة حتى الوقت الحاضر؟ لقد كان العالِم، أو الباحث، أو الارسالّي، أو التاجر، أو الجندي في الشرق، أو فكَّر بالشرق، لأنه كان قادراً على أن يكون هناك أو على أن يفكَّر به، دون مقاومة تذكر من جانب الشرق. وتحت العنوان العام للمعرفة بالشرق، وتحت مظّلة التسلط الغربي على الشرق منذ نهاية القرن الثامن عشر، برز شرق معَّقد متشابك ملائم للدراسة في البيئة الجامعية، وللعرض في المتاحف، وللاستبناء في المكاتب الاستعمارية، وللإيضاح النظري في أطروحات علم الإنسان، وعلوم الحياة، والألسنية، والأعراق، والتاريخ حول الإنسان

[2] Denys Hay, *Europe: The Emergence of an Idea,* 2nd ed. (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1968).

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

والكون، ولتقديم أمثلة على النظريات الاقتصادية والاجتماعية في التطور، والثورة، والشخصية الثقافية، والخصائص القومية أو الدينية. وإضافةً، فان الاكتناه التخيّلي للأشياء الشرقية كان يقوم، بصورة حصرية نوعاً، على وعي غربي ذي سيادة برز من مركزيته التي لم يكن ثمة ما يتحداها عالم شرقي، أولاً تبعاً لأفكار عامة حول هوية من وما كان شرقياً، ثم تبعاً لمنطق مفصَّل ليس محكوماً ببساطة بالواقع التجريبي بل بمجموعة من الرغبات، والمقموعات، والاستثمارات، والاسقاطات. ولئن كان بوسعنا أن نشير إلى أعمال استشراقية من البحث الأصيل ككتاب سِلْفَسْتَر دوساسي **المقتطفات العربية** او كتاب أدوارد لَيْن **مسالك المصريين المعاصرين وعاداتهم**، فإن علينا أن نلاحظ أيضاً أن أفكار رينان وغوبينو العنصرية العرقية صدرت عن الحافز نفسه، كما صدر عنه عدد كبير جداً من روايات الجنس المكشوف الفيكتورية (را. تحليل ستِيفن مارْكس لِـ "التركي الشبق") [3].

ومع ذلك، فإن على المرء أن يتساءل دائماً: هل ما يهم في الاستشراق هو المجموعة العامة من الأفكار التي تطغى على كتلة المادة - ومن يستطيع أن ينكر أنها كانت (أفكاراً) مشبعة بمذاهب التفوق الأوروبي، وبشتى أنواع العنصرية العرقية، وبالإمبريالية، وما إليها، وبأفكار مذهبية جامدة عن "الشرقي" بوصفه تجريداً مثالياً ولا متغيراً؟- أو العمل الأكثر تنوعاً بكثير الذي أنتجه عدد لا يكاد يُحصى من الكتاب الأفراد، الذين يدرسهم المرء بوصفهم حالات فردية للكتاب الذين يعالجون الشرق. وبمعنى ما، فإن البديلين، العام والخاص، هما في الحقيقة منظوران لمعاينة المادة نفسها: ففي كلتا الحالتين، على المرء أن يناقش روّاداً في الميدان مثل وليم جونز، وفنانين عظاماً مثل نرفال وفلوبير. بل لماذا يمتنع استخدام كلا المنظورين معاً، أو الواحد بعد الآخر؟ أوَليس ثمة خطر واضح للتشويه (من النمط نفسه الذي كان الاستشراق الجامعي دائما عرضة للوقوع فيه) إذا حافظ المرء باطِّراد على مستوى للوصف مفرط في العمومية أو مفرط في الخصوصية؟

إن خوَفيَّ هما التشويه وغياب الدقة، أو بالحري ذلك النمط من غياب الدقة الذي تنتجه تعميمة مبالغ في مذهبيتها الجامدة ومحرق موضعي مبالغ في وضعيته. وفي سعيي لمواجهة هذه المشكلات حاولت أن أعالج ثلاثة جوانب رئيسية من واقعي المعاصر يبدو لي أنها تدل على مخرج من الصعوبات المنهجية أو المنظورية التي ما فتئتُ أناقشها، وهي صعوبات قد تجبر المرء، أولاً، على كتابة مماحكة خشنة على مستوى من الوصف يبلغ من العمومية غير المقبولة درجة يصبح معها غير جدير ببذل الجهد، أو تجبره، ثانياً، على كتابة

---

[3] Steven Marcus, *The Other Victorians: A Study of Sexuality and Pornography in Mid-Nineteenth Century England* (1966; reprin ed., New York: Bantam Books, 1967),pp. 200 -19.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

سلسلة من التحليلات التي تبلغ من التفصيل والذرِّية درجة تجعلها تفقد كل أثر للخطوط العامة للقوة التي تنفح الحقل وتشكِّله مانحة إياّه قوة حجَّته المميزة. كيف، إذن، نميِّز الفردية ونلائم بينها وبين سياقها العام الذكي والتسلطي والذي لا يمثل بأي شكل مجرد سياق سلبي أو ديكتاتوري؟

ذكرتُ ثلاثة جوانب من واقعي المعاصر: وينبغي أن أوضَّحها الآن وأناقشها بإيجاز من أجل أن يكون جليّاً كيف دُفِعْتُ إلى سبيل معيّن من البحث والكتابة.

1- **التمييز بين المعرفة الخالصة والمعرفة السياسية.** من السهل جداً أن يطرح المرء **منظومة** أنّ المعرفة المتعلقة بشكسبير أو ووردزورث ليست معرفة سياسية، أما المعرفة المتعلقة بالصين المعاصرة أو الاتحاد السوفييتي فهي سياسية. إن تسميتي الرسمية والمهنية هي "إنسانيّ"، وهو لقب يشير إلى الدراسات الإنسانية كميدان لتخصّصي، ويشير، لذلك، إلى إنتفاء احتمال وجود أي شيء سياسي فيما أقوم به في هذا الميدان. ومن الطبيعي أن هذه الملصقات والمصطلحات، كما أستعملها هنا، خالية من أي تظليلات دلالية فرقية. بيد أن الحقيقة العامة لما أُشير إليه معتنقة بشكل واسع كما أعتقد. وأحد أسباب القول بأن دارساً إنسانياً يكتب عن ووردزورث، أو محررّاً (للنصوص) متخصّصاً في (شعر) كيتس، ليس منشبكاً في عمل سياسي هو أنه لا يبدو لما يقوم به أي تأثير سياسي مباشر على الواقع بمعناه اليومي. أما الباحث المتخصص في الاقتصاد السوفييتي فانه يعمل في مجال مشحون إلى درجة عالية وللحكومة فيه اهتمام كبير بارز، وما قد ينتجه من دراسات أو اقتراحات سيُتناول من قبل صانعي السياسة، والموظفين الحكوميين، واقتصاديي المؤسسات، وخبراء الاستخبارات. ويمكن توسيع التمييز بين "الإنسانيين" وبين الأشخاص الذين يكون لعملهم مضاعفات في رسم السياسة، أو أهمية سياسية، إلى درجة أبعد بالقول إن اللون العقائدي للأول ذو أهمية عرضية بالنسبة للسياسة مع أنه قد يكون عظيم الأهمية بالنسبة لزملائه في ميدان عمله، الذين قد يعترضون على ستالينيته أو فاشيته أو تحرريته المفرطة في السهولة، أما عقائدية الثاني فإنها جزء طبيعي من لحمة مادته- والواقع أن الاقتصاد، والسياسة، وعلم الاجتماع في البيئة الجامعية الحديثة هي علوم عقائدية - ولذلك تعتبر بدهياً "سياسية".

ومع ذلك، فإن التطاول العدواني الحاسم على معظم المعرفة المنتجة في الغرب المعاصر (وأنا أتحدث هنا عن الولايات المتحدة بشكل رئيسي) هو أن تكون لا سياسية أي، بحثية، جامعية، متجردة، تسمو فوق التحزبيّة أو الإيمان المذهبي ذي الأفق الضيق. وقد لا يسع المرء أن يعترض على طموح كهذا، نظرياً، أما في التطبيق فان الواقع أكثر إشكالية بكثير. ذلك أنه ما من أحد ابتكر أبداً طريقة لفصل الباحث عن ظروف الحياة، وعن حقيقة انشباكه (واعياً أو لا واعياً) في طبقة، في طقم من المعتقدات، وفي منزلة اجتماعية، أو عن

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

مجرد فاعلية كونه عضواً في مجتمع. وما تزال هذه الأشياء تمارس تأثيرها على ما يقوم به (الباحث) مهنياً، رغم أن أبحاثه وثمراتها، بشكل طبيعي تماماً، تحاول فعلاً أن تبلغ مستوى من الحرية النسبية من كوابح الواقع اليومي القاسي ومقيِّداته. ذلك أن ثمة شيئاً في الوجود كالمعرفة التي تكون أقل، بدلا من أن تكون أكثر، تحيزاً من الفرد الذي ينتجها (بكل ما في ظروف حياته من عوامل تعاظل وتشتت). بيد أن هذه المعرفة ليست، نتيجةً، لا سياسية.

إن كون مناقشات الأدب أو فقه اللغة الكلاسيكي مشحونة بالدلالة السياسية أو تمتلك دلالة سياسية غير مُوَسَّطة، أو كونها على خلاف ذلك، سؤال كبير جداً حاولتُ أن أعالجه بشيء من التفصيل في مكان آخر[4]. وما يعنيني أن أقوم به الآن هو أن أقترح كيف يمّوه الإجماع التحرريّ العام على أن المعرفة "الحقيقية" هي جوهرياً لا سياسية (وبالمقابل، أن المعرفة السياسية صراحة ليست معرفة "حقيقية") الظروف السياسية المنظَّمة تنظيماً عالياً، وإنْ يكن غامضاً، التي تسود في عملية إنتاج المعرفة. ولا يساعد أحداً اليوم على فهم ذلك كون الصفة "سياسي" تستخدم كملصقة لتجريح أي عمل يجرؤ على أن ينتهك حرمة مراسيم الموضوعية الفوق-سياسية المدّعاة.

وبوسعنا القول، أولاً، أن المجتمع المدني يميِّز تدرّجاً في الأهمية السياسية في ميادين المعرفة المختلفة. وإلى حد ما، فان الأهمية السياسية التي تسبغ على ميدان ما تنبع من احتمال ترجمته مباشرة إلى معطيات اقتصادية؛ لكن الأهمية السياسية، إلى حد أبعد، تنبع من قرب ميدان ما من مصادر القوة التي يمكن التحقق منها في المجتمع السياسي. ومن ثَمَّ، فإن دراسة اقتصادية لمصادر الطاقة الكامنة بعيدة المدى في الاتحاد السوفييتي ولتأثيرها على مقدراته العسكرية يُحتَمل أن تقوم بالتكليف بإنجازها وزارة الدفاع (الأميركية) وأن تكتسب فيما بعد نمطاً من المكانة السياسية يستحيل توفرها لدراسة عن فن تولستوي الروائي المبكر تدعمها جزئياً مؤسسة ما. ومع ذلك فان كلتا الدراستين تنتميان إلى ما يقرُّ المجتمع المدني أنه ميدان واحد. هو الدراسات الروسية، رغم أن إحداهما قد تُنْجَز من قبل اقتصادي محافظ جداً، والأخرى من قبل مؤرخ أدبي جذري (راديكالي). والنقطة (التي أطرحها) هنا هي أن "روسيا" كموضوع عام، ذات أولوية سياسية بالمقارنة مع تمييزات أنعم من مثل "الاقتصاد" أو "التاريخ الأدبي" لأن المجتمع السياسي، بالمعنى الذي يحدده غرامشي، ينفذ إلى عالم من عوالم المجتمع المدني كالبيئة الجامعية ويشبعه بدلالات ذات أهمية مباشرة بالنسبة له.

لا أود أن أوكد هذا كله وأتقصّاه بأكثر مما فعلتُ لاعتباراتٍ نظرية عامة: يبدو لي أن قيمة القضية التي أطرحها وجدارتها بالقبول يمكن أن تبرهنا بأن أكون أكثر تخصيصاً،

[4] See my Criticism Between Culture and System (Cambridge Mass: Harvard University Press, forthcoming).

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

كما فعل نوعام تشومسكي، على سبيل المثال، حين درس العلاقة الفاعلة بين حرب فيتنام وبين مفهوم البحث الموضوعي كما طبِّق لتغطية الأبحاث العسكرية التي دعمتها الدولة[5]. والآن، فان كون بريطانيا، وفرنسا، ومؤخراً الولايات المتحدة قوى إمبريالية يجعل مجتمعاتها السياسية تنقل إلى مجتمعاتها المدنية إحساساً بالإلحاح، أو نفحاً سياسياً مباشراً، لنقل، حينما وحيثما يمسُّ الأمر قضايا تتعلق بمصالحها الإمبريالية في الخارج.

وإنني لأشكُّ في أن يكون ثمة ما يثير الجدال في القول، مثلاً بأن الإنسان الإنكليزي في الهند أو في مصر في أواخر القرن التاسع عشر أَوْلى هذين البلدين اهتماماً لم يكن في أي لحظة منفصلاً عن مكانتهما في ذهنه كمستعمرتين بريطانيتين. وأن يقول المرء هذا قد يبدو مختلفاً عن القول بأن المعرفة الجامعية عن الهند ومصر مُشْرَبَةٌ كلها بشكل ما، ومطبوعة، ومنتهكة من قبل الحقيقة السياسية الإجمالية_ ومع ذلك فان هذا بالضبط هو ما أقوله في هذه الدراسة للاستشراق. ذلك أنه إذا كان صحيحاً أنه ما من إنتاج للمعرفة في العلوم الإنسانية يمكن أن يتجاهل أو يتبرأ من انشباك مؤلفه كفاعل إنساني في ظروف حياته، فلا بدّ أن يكون صحيحاً أيضاً أنه بالنسبة للأوروبي أو الأمريكي الذي يدرس الشرق لا يمكن أن يكون ثمة تبّرؤ من الظروف الرئيسية لواقعه هو: (وهي) أنه يواجه الشرق بوصفه أوروبياً أو أمريكياً، أولاً، ثم فرداً، ثانياً. وأن يكون المرء أوروبياً أو أمريكياً في موقف كهذا ليس بأي شكل حقيقة خاملة. بل إنها لحقيقة عَنَتْ، وما تزال تعني، كون المرء يمتلك وعياً، مهما كان غائماً، بأنه ينتمي إلى قوة ذات مصالح محددة في الشرق وأنه، وذلك أكثر أهمية، ينتمي إلى جزء من الأرض ذي تاريخ محدد من الانشباك في الشرق منذ زمن هومرس تقريباً.

إذ تصاغ بهذه الصورة، فان هذه الواقعيات السياسية ما تزال من ضعف التحديد والعمومية بحيث يصعب أن تكون شيقة بحق. وقد يتقبلها أي إنسان دون أن يتقبل بالضرورة أنها كانت أيضاً ذات أهمية كبيرة لفلوبير، مثلاً، و هو يكتب **سلامبو**، أو إتش. أي. أرْ. جب وهو يكتب **الاتجاهات الحديثة في الإسلام**. والمشكلة هي أن ثمة بوناً شاسعاً جداً بين الحقيقة الطاغية الكبيرة، كما و صفتُها، و بين تفصيلات الحياة اليومية التي تحكم الانضباط الدقيق لرواية ما أو لنص بحثي ما وهما يُكتبان. بيد أننا إذا أقصينا بدءاً أي مفهوم لكون الحقائق "الكبيرة" كالسيطرة الإمبريالية يمكن أن تطبَّق بصورة آلية (ميكانيكية) وتحتيمية على قضايا بالغة التعقد والتشابك كالثقافة والأفكار، فأننا سنبدأ بالاقتراب من نمط شيّق من أنماط الدراسة. إن فكرتي هي أن الاهتمام الأوروبي ثم الأمريكي بالشرق كان سياسياً تبعاً لبعض المسارد التاريخية الواضحة له التي أوردتها هنا، لكن الثقافة كانت هي التي خلقت ذلك

[5] Principally in his *American Power and the New Mandarins:* Historical and Political Essays (New York: Pantheon Books, 1973).

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الاهتمام، والتي فعلت بحيوية (ديناميكية) جنباً إلى جنب مع المعقِلنات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية العارية من أجل أن تجعل من الشرق المكان المنّوع والمعقد الذي كان بوضوح في الميدان الذي أسميه الاستشراق.

ولذلك، فإن الاستشراق ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية في الثقافة، والبحث، والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق؛ كما أنه ليس معبِّراً عن، وممثلاً لمؤامرة إمبريالية "غربية" شنيعة لإبقاء العالم "الشرقي" حيث هو. بل إنه، بالحري، **توزيع** للوعي الجغرا-سي إلى نصوص جمالية، وبحثية واقتصادية، واجتماعية، وتاريخية، وفقه لغوية؛ وهو **إحكام** لا لتمييز جغرافي أساسي وحسب (العالم يتألف من نصفين غير متساويين، الشرق والغرب) بل كذلك لسلسلة كاملة من "المصالح" التي لا يقوم (الاستشراق) بخلقها فقط، بل بالمحافظة عليها أيضاً بوسائل كالاكتشاف البحثي، والاستبناء فقه اللغوي، والتحليل النفسي، والوصف الطبيعي والاجتماعي؛ **وهو إرادة**، بدلاً من كونه **تعبيراً عن إرادة**، معينة أو نية معينة لفهم ما هو، بوضوح، عالم مختلف (أو بديل وطارئ) والسيطرة عليه أحياناً والتلاعب به، بل حتى ضمه؛ وهو، قبل كل شيء، إنشاء ليس على الإطلاق على علاقة تطابقية مباشرة مع القوة السياسية في شكلها الخام، بل إنه لينتج ويوجد في وضع تفاعل غير متكافئ مع مختلف أنماط القوة، مكتسباً شكله إلى حد ما من تفاعله مع القوة السياسية (كما هي الحال (في تفاعله) مع مؤسسة استعمارية أو إمبريالية)، والقوة الفكرية (كما هي الحال مع علوم تحتل مركز الصدارة مثل الألسنية المقارنة، وعلم التشريح المقارن، أو أي من علوم السياسة الحديثة)، والقوة الثقافية (كما هي الحال مع المذاهب السنية (الأرثوذكسية)، وشرائع الذوق، والنصوص، والقيم)، والقوة الأخلاقية (كما هي الحال مع أفكار تدور حول ما نفعله "نحن" وما يعجزون "هم" عن فعله أو فهمه كما نفعله "نحن"). وبالفعل، فان منظومتي الحقيقية هي أن الاستشراق لا يمثِّل ببساطة بُعْداً هاماً من أبعاد الثقافة السياسية ـ الفكرية الحديثة، بل إنه **هو هذا البعد**، وهو بهذه الصورة أقل ارتباطاً بالشرق منه بعالم "نا" "نحن".

ولأن الاستشراق، إذن، حقيقة ثقافية وسياسية، فهو لا يوجد في فراغ سجل للمحفوظات بل، على العكس تماماً: ففي اعتقادي أنه يمكن التدليل على أن ما يُفَكَّر عن الشرق، وما يقال عنه، بل حتى ما يُفعل بازائه، يتبع خطوطاً متميزة وقابلة للمعرفة فكرياً (بل إنه ربما كان يحدث ضمن مثل هذه الخطوط). وهنا أيضاً يمكن أن نعاين درجة كبيرة من التظليل الدلالي الفرقي، ومن الإحكام، فاعلةً ما بين الضغوط العريضة النابعة من البنية الفوقية، وتفاصيل التأليف، أو حقائق النصوصية.

أظن معظم الباحثين في الدراسات الإنسانية يرتاحون تماماً لمفهوم أن النصوص توجد في سياقات، وأن ثمة شيئاً كالتداخلية النصّية، وأن ضغوط التقاليد، والأسلاف،

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

والأساليب البلاغية تحدُّ مما أسماه فالتر بْنَجِمنَ مرة "إثقال كاهل الفرد المنتج باسم .... مبدأ الإبداع" الذي يؤمن بمقتضاه بأن الشاعر، وحده وبمفرده، وصادراً عن عقله المحض فقط، جاء بما جاء به من إنتاج [6]. بيد أن ثمة تردداً في قبول كون الضوابط المقيدة السياسية، والمؤسساتية، والعقائدية تمارس التأثير ذاته على المؤلف الفرد. والدارس الإنساني على استعداد للإيمان بأن كون بلزاك قد تأثر في **الملهاة** الإنسانية بالنزاع بين جيوفرواسان - هيلير وكوفييه حقيقة شيقة بالنسبة لأي مؤوِّلٍ لأعماله، لكن النمط نفسه من الضغط على بلزاك النابع من إيمان عميق الرجعية بالملوكية يُعايَنَ بطريقة غامضة بوصفه يحطّ من شأن "عبقريته" الأدبية وبوصفه، نتيجةً، أقل استحقاقاً للدراسة الجادة. وبصورة مشابهة، فان الفلاسفة - كما مابرح هاري بْراكِنْ يظهر دون كلل - يقيمون مناقشاتهم لِـ لوك، وهيوم، و(الفلسفة) التجريبية دون أن يأخذوا بعين الاعتبار أبداً أن ثمة علاقة صريحة لدى هؤلاء الكتّاب الكلاسيكيين بين مذاهبهم "الفلسفية" والنظرية العرقية، وتبريرات الرقيق، أو المنظومات المدعمة للاستغلال الاستعماري[7] . وهذه جميعاً طرق مألوفة معروفة يحفظ بها البحث المعاصر نفسه نقياً خالصاً.

قد يكون صحيحاً أن معظم المحاولات التي جرت (حتى الآن) لتمريغ أنف الثقافة في أوحال السياسة كانت من نمط التحطيم الخام الفظّ للمقدسات؛ وقد يكون صحيحاً أيضاً أن التفسير الاجتماعي للأدب في ميدان عملي الخاص قد أخفق ببساطة في موازاة التقدم التقني الهائل في التحليل النصيِّ المفصّل. إلا أنه ليس ثمة من مهرب من حقيقة أن الدراسات الأدبية عامة، والمنظّرين الماركسيين الأمريكيين خاصة، قد تجنبوا بذل الضروري من الجهد لردم الهوة القائم بين المستويات النابعة من البنى الفوقية والمستويات التحتية في تراث البحث النّصي، التاريخي، بل لقد ذهبتُ في مناسبة أخرى إلى حد القول إن المؤسسة الأدبية - الثقافية بأكملها قد أعلنت أن الدراسة الجادة للإمبريالية والثقافة خارجة عن مجالها[8]. إذ أن الاستشراق يضع الإنسان مباشرة في مواجهة ذلك السؤال - أي، في موضع يدرك فيه أن الإمبريالية السياسية تتحكم بحقل كامل من حقول الدراسة، والتخيل، والمؤسسات البحثية - بطريقة تجعل تجنّب السؤال محالاً فكرياً وتاريخياً. بيد أنه ستظل هناك دائماً آلية الهروب الأزلية باللجوء إلى القول إن الباحث الأدبي والفيلسوف، مثلاً، قد تلقيا تدريبهما في الأدب والفلسفة على التوالي، لا في (علوم) السياسة أو التحليل العقائدي. وبكلمات أخرى، فان

---

[6] Walter Benjamin, Charles Baudelaire: A Lyric Poet in the Era of High Capitalism, trans. Harry Zohn (London: New Left Books, 1973), p.71.

[7] Harry Bracken, *Essence, Accident and Race*, Hermathena 116 (Winter 1973): 81-96.

[8] In an interview published in *Diacritics* 6, no. 3 (Fall 1976): 38.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

منظومة المتخصص قادرة على أن تؤثّر تأثيراً عميقاً في سدّ المنظور الأرحب والذي هو، في نظري، الأكثر جدية فكريّاً.

ويبدو لي هنا أن ثمة جواباً بسيطاً ذا شّقين، على الأقل فيما يخصّ دراسة الإمبريالية والثقافة (أو الاستشراق). أولا، كان كل كاتب من كتّاب القرن التاسع عشر (ويصدق هذا أيضاً على كتّاب المراحل السابقة) يعي، إلى درجة فائقة، حقيقة الإمبراطورية: وذلك موضوع لم يدرس دراسة جيدة، لكن أيَّ مختصّ فيكتوري حديث لن يتردد طويلاً قبل أن يعترف بأن أبطال الثقافة التحررية من مثل جون ستيوارت مِلْ، وأرنولد، وكارلايل، وذيومن، وماكولي، ورَسْكين، وجورج إليوت، بل حتى ديكنز، كانوا يحملون آراء محددة في العرقية والإمبريالية، آراء من السهل رؤية فاعليتها في أعمالهم. ومن ثمَّ، فحتى المختصّ يجب أن يواجه معرفته مِلْ، مثلاً، أوضح في (كتابيه) عن **الحرية، والحكومة الممثِّلة** أن آراءه فيهما لا يمكن أن تطبَّق على الهند (وقد كان مِلْ، بعد كل حساب، إدارياً في مكتب الهند لفترة طويلة من حياته) لأن الهنود كانوا حضارياً، إن لم يكن عرقياً، في مستوى دونّي. وتوجد المفارقة الضدية ذاتها لدى ماركس، كما أحاول أن أظهر في هذا الكتاب. ثانياً، إن إيماء المرء بأن السياسة، متلبِّسةً شكل الإمبريالية، تؤثر على إنتاج الأدب، والبحث، والنظرية الاجتماعية، وكتابة التاريخ لا يرادف بأي حال القول بأن الثقافة هي، لذلك، شيء وضيع مهين. بل على العكس تماماً: إن صلب ما أريد قوله هو أن بوسعنا أن نفهم فهماً أفضل الإلحاحَ والمتانة القائمين في الأنظمة التسلطية المشبعة كالثقافة حين ندرك أن ضوابطها الداخلية المقيدة للكتاب والمفكرين كانت منتجة، لا كابحة بصورة خالصة. وهذه هي الفكرة التي ما يزال غرامشي، دون شك، وفوكو، وريموند وِلْيَمْزْ، بطرقهم بالغة الاختلاف، يحاولون أن يضيئوها. وإن مقطعاً واحداً أو مقطعين لوليمز عن "استخدامات الإمبراطورية" في (كتابه) **الثورة الطويلة** ليخبرنا بأكثر مما تخبرنا به مجلدات عديدة من التحليل الصومعي المقفل[9] عن (طبيعة) الثراء الثقافي في القرن التاسع عشر.

لذلك أدرس الاستشراق بوصفه تبادلاً حيوياً بين مؤلفين أفراد وبين المؤسسات السياسية الواسعة التي شكّلتها الإمبراطوريات العظيمة الثلاث-البريطانية، والفرنسية، والأميركية - التي أُنْتِجَت الكتابة (الاستشراقية) ضمن حدودها الفكرية والتخيلية. وما يعنيني أكثر كباحث ليس الحقيقة السياسية الإجمالية، بل التفاصيل، بالضبط كما أن ما يعنينا في عمل كاتب مثل لَيْن، أو فلوبير، أو رينان، ليس الحقيقة التي لا مراء فيها (بالنسبة إليه) من كون الغربيين أسمى من الشرقيين، بل الدليل المحكم والمعدّل بعمق لعمله التفصيلي ضمن

[9] Raymond Williams, *The Long Revolution* (London: Chatto & Windus,1961), pp. 66-7.

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

الفضاء الرحب الذي فتحته تلك الحقيقة. وبحسب المرء أن يتذكر أن (كتاب) لين **مسالك المصريين المعاصرين وعاداتهم** كتاب كلاسي في الملاحظة وعلم الإنسانية بسبب أسلوبه، وتفاصيله اللامعة، هائلة الذكاء، لا بسبب تجسيده البسيط للفوقية العرقية، لكي يدرك ما أقوله هنا.

إن نمط الأسئلة التي يثيرها الاستشراق، إذن، هو التالي: ما هي أنواع الطاقات الأخرى، الفكرية، والجمالية، والبحثية، والثقافية، التي دخلت في خلق تراث إمبريالي كتراث الاستشراق؟ وكيف خدم فقه اللغة، والمعجماتية، والتاريخ، وعلم الأحياء، والنظرية السياسية والاقتصادية، وكتابة الرواية، والشعر الغنائي، رؤية الاستشراق الإمبريالية، إجمالاً، للعالم؟ وأي تغيرات، وتعديلات، وتنقية وتشذيب، بل أي ثورات تحدث داخل الاستشراق ذاتَه، أو يعيد إنتاجها من عهد إلى عهد؟ وباقتضاب، كيف نستطيع أن نعالج ظاهرة الاستشراق الثقافية، التاريخية، بوصفها نمطاً من **العمل الإنساني المُراد (الإرادي)** -لا من مجرد الاستنتاج اللامشروط - بكل تعقيدها وتشابكها التاريخي، وتفصيلاتها، وقيمتها، دون أن نخفق في الوقت نفسه في رؤية التحالف بين العمل الثقافي، والنزعات السياسية، والدولة، والواقعيات الخاصة للسيطرة؟ إن الدراسة الإنسانية، إذ تتحكم بها اهتمامات كهذه، يمكن أن تتجه بمسؤولية كاملة إلى دراسة السياسة والثقافة. بيد أن هذا لا يعني القول إن دراسة كهذه تؤسّس قاعدة صلبة دائمة للعلاقات بين المعرفة والسياسة. إن منظومتي هي أن كل اكتناه في الدراسات الإنسانية ينبغي أن يصوغ طبيعة تلك العلاقة ضمن السياق الخاص للدراسة، وللموضوع، ولظروفه التاريخية.

λ_;

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous

STUDENTS-HUB.com Uploaded By: anonymous